سياسة الناس

•

الزمان الاول

كان صار الزمان بالناس قبل عمر الى الزمان الثالث حيث يصلح الناس ويفسد الوالي، ثم صار الناس على هوة الزمان الرابع فيفسد الناس مع فساد الراعي ، ولكن عمر جاء فرد الناس فجأة الى الزمان الأول ، فجاء هو صالحا واستبقى ما في الامة من صلاح ، وليته دام فيدوم الزمان الأول ولكنه كان مقدرا بعمره ومدته ، ثم هوى الزمان والناس من بعده الى الزمان الرابع : الى الحضيض [٢٧٠]

جاء عمر وهو يرى قرة عيون الملوك في ثلاث : ان يستفيض الأمن فيغمر البلدان : ينزل الى حضيض الوديان فلا تنصرف قطرة ماء من مياه السيل الا لمكانها ، ولا تشرد من شعفات الجبال شاة فلا تضيع في يد سارق أو في انياب ذئب .. وان تظهر المودة من

(٢٧٠) انظر أقسام الزمان لابن المقفع . المطالعة التوجيهية ص ١٧٩ نقلا عن اليتيمة .

الرعية لراعيها ، ولا يكون ذلك الا اذا ادى الراعي حقها قبل ان تؤدي حقه وتحس بالسعادة تصل الى ابوابها دون قلق أو شكوى . واذا حدث هذان اثنى الناس على الوالي واسترسلوا في الثناء الحسن . وفي هذه الثلاثة : الأمن ومودة الرعية والثناء على الراعي — في هذه الثلاثة قرة عين الملوك [٢٧١] .

وجاء عمر يسوس الناس عن علم وخبرة لا عن جهل وارتجال ، وامتد بصره في نظرة طويلة وتدبير محكم ، وجاءهم بعد الفكرة والنظر بعقيدة راسخة ونية على العمل ، واستجمع وجمع من حوله المشيرين والنصحاء وراح يستنصح كل من ظن فيه خيرا ، ولم يُعفِ رجلا في أقصى الارض من الاستعانة به واستهدائه متى ظن فيه الخير وكان من بقية الناس [٢٧٢] .

ولما فرّغ بدنه من شهوة الذات قعد لحوائج الناس يومه ، فلما امسى ولم يقضها وصله بليلته ، وقد امسى يوماً وقد فرغ من حوائج الناس فدعا بمصباح كان يستصبح به من ماله ، ثم صلى ركعتين ثم أقعى واضعا يده تحت ذقنه تسيل دموعه على خده ، ولم يزل كذلك حتى برق الفجر فأصبح قائما .

ورأت فاطمة بنت عبدالملك ذلك منه فقالت له : يا أمير المؤمنين ، لشيء ما كان منك ما رأيت الليلة ؟ قال : أجل ! اني وجدتني وليتُ امر هذه الأمة اسودها واحمرها فذكرت الغريب القانع الضائع والفقير المحتاج والاسير المقهور واشباههم في اطراف

---

(٢٧١) ابن الجوزي ص ٨٥

(٢٧٢) الخراج لابي يوسف ص ١١٤

الارض فعلمت ان الله تعالى سائلني عنهم ، وان محمداً صلى الله عليه وسلم حجيجي فيهم ، فخفت الا يثبت لي عند الله عذر ولا تقوم لي مع محمد حجة ، فخفت على نفسي !

بيت المال

ولم يعد لأحد من حق في بيت المال الا بحقه حتى القائم على حراسته وحسبته ، فاذا نقص من المال شيء - من غير خيانة - ردّه القائم من خاصة ما له ، ولم يُعْفَ وهب بن منبه الفقيه الورع والمعدود من الأحبار ان يَرُد الى بيت المال ما فقد منه حين كان قائماً عليه ، وكتب الى عمر انه فقد من بيت المال ديناراً او بضعة دنانير - كما اختلف الرواة - فكتب اليه عمر : اني لا اتهم دينك ولا امانتك ، ولكني أتهم تضييعك وتفريطك ، وانا حجيج المسلمين في اموالهم ! ثم امره بردّ ما فقد من بيت المال فرده وهب من خاصة ماله [٢٧٣] .

وكان لعمر بن الخطاب وللخلفاء من بعده حقوق في بيت المال ابتدأت بدرهمين لعمر وانتهت الى بيت المال كله للخليفة الأموي ، فلما كان عمر بن عبد العزيز رأى ان يستغني عن بيت المال جملة ويكتفي بشيء مما ابقى من قطائعه ، وقدّر له درهمين في كل يوم ، ولم يحرم الخليفة نفسه فحسب من مال الله ولكنه حرّم ان يفيد منه ابن او مولى او دابة تعمل له ، ولم يَرَ نفسه الا قيماً على المال لا مالكاً له ، فان كان للخليفة حق فيه فانما يكون فيما يتصل بعمله من سياسة الناس . والشمع الذي استضاء به عمر في حوائجه ،

(٢٧٣) ابن الجوزي ص ٨٥

والماء الساخن الذي توضأ به في الغداة الباردة ، والتفاحة التي اشتهاها ، لم ير عمر له حقاً فيه الا ان تكون بخاصة ماله ، حتى ريح العنبر الذي ينفح الجو بعبيره ولم يجد له حقاً فيه ابعده عنه وكتم أنفه حتى يبتعد . ولو حُملت اليه هديه على دابة للبريد باعها وجعل ثمنها في علف دواب البريد [٢٧٤]

وليس لأحد من خاصة عمر ان يأمر في مال او جُهْد او دابة الا بحق ، فلما حمل مولى له رجلاً على خيل البريد بغير اذنه دعاه فقال له : لا تبرح حتى تقوّمه وتضعه في بيت المال [٢٧٥] .

ولعل من رائع ما فعل عمر انه ردّ ابنه عن الزواج من بيت المال حين طلب اليه ان يزوجه منه ، مع ان عمر امر بأن تقضى حاجات الغرباء في الزواج منه : طلب ابن له أن يزوجه ويُصْدِق عليه من بيت المال ، وكان لابنه هذا امرأة اخرى تزوجها من قبل ، فغضب عمر حين طلب اليه ابنه ذلك وكتب اليه : لعمر الله! لقد اتاني كتابك تسألني ان اجمع لك بين الضرائر من بيت مال المسلمين . وابناء المهاجرين لا يجد احدهم امراة يستعف بها ، فلا اعرفنّ ما كتبت ! وانظر الى ما قبلك من نحاسنا ومتاعنا ، واستعن بثمنه على ما بدا لك . وبينما عمر يفعل ذلك مع ابنه يكتب الى زيد بن عبد الرحمن عامله على الكوفة فيقول : كتبت تذكر انه قد اجتمعت عندك أموال بعد

---

(٢٧٤) ابن الجوزي ص ١٦١ ـ محاسن السلوك ص ٧٨ ـ ابن عبدالحكم ص ٥٢

(٢٧٥) الخراج لابي يوسف ص ١٨٦

أعطية الجند ، فأعطِ كل من كان عليه دينٌ في غير فساد، او تزوج فلم يقدر على نقد . والسلام [٢٧٦]

اما اصحاب الحقوق في بيت المال فالمسلمون كافة ، وعلى بيت المال القَسْم بينهم ، وكلٌ ياخذ منه بحقه، وعلى اصحاب الحقوق ان يستوفوا منه حقوقهم ، لا يردهم عنها راد . ومن بيت المال تنفق دار الضيافة التي يقيمها الأمير . ومن بيت المال تسد حاجات المغرم وابن السبيل ، ولقد قالوا ان عمر اول من اتخذ دار الضيافة من الخلفاء مقتدياً بابيه عبد العزيز حين كان والياً على مصر، واول من فرض لأبناء السبيل [٢٧٧]

ولم يفهم بعض ولاة عمر ما يريده خليفتهم للناس من رفع قيم معيشتهم ، فلما كتب اليهم ان يقضوا ديون الغارمين كتبوا اليه : انا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس والأثاث في بيته ! فكتب اليهم عمر : لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي اليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرسٍ يجاهد عليه عدوه ؛ واثاثٍ في بيته ، فهو غارم فاقضوا عنه !

ثم جعل عمر بيوت الأموال بيتاً واحداً فلو اغتنى بلد وافتقر آخر سدَّ البلد الغنيّ حاجة البلد الفقير وعجزه حتى لو لم يبق له شيء . وقد امر ان تَسُد الشام حاجة العراق في رد المظالم حين لم يكف مال العراق في ردها. وبذلك صار العالم الاسلامي في مدته وَحدة ذات قوة وتماسك يسد بعضها حاجات بعض .

---

(٢٧٦) ابن عبد الحكم ص٦٧، ١٢٨

(٢٧٧) حياة الحيوان ج ١ ص٦٨ — ابن الجوزي ص ٨٥

وفي بيت ماله كانت تضرب الدراهم والدنانير ، وفيه تبدّل النقود ، التي لا تَنْفَق اذا دارت في الأسواق وساءت لكثرة ما استعملت ، لئلا تقف سوق البيع والشراء ويضارّ الناس [٢٧٨] .

القصد والاسراف

ولم ير عمر من وظيفة بيت المال ان يحفظ الدنانير حتى تتجمّد فيه جبالاً لا يسيل منها سيل يُرْوي او يسقط منها طلٌّ يَبُل ، بل رأى انه لا ضرورة لان يُخْتَزَن فيه شيء اذا كانت حاجات الرعية تستنفد المال كله . وقد أقلقه في ذلك العمال واصحاب بيوت الاموال واقلقهم ، هم كانوا يرون انه لا بد من مال يخزن وهو يَرَى انه لا يُخْزَن شيء ، وكتبوا اليه يحثونه وهو يأبى . ثم اجترأ والٍ فكتب اليه يقول : انك اضررتَ ببيت المال ! فكتب اليه عمر : اعطِ ما فيه ، فاذا لم يبق شيء فاملأه وحلًا! [٢٧٩]

ولم يكن عمر بذلك يدعو الناس الى الاسراف ، فالاسراف امر غير قضاء حاجات ذوي الحقوق ، اما العمال فكانوا هم المسرفين ولا يدرون ، كانوا يفرقون ما يُجْمع في التافه والرخيص فرأى عمر ان يقتصدوا في الانفاق حتى لا يضيق ذرعاً بحاجات الناس .

كان الولاة والعمال ينفقون من المال على شراء اوراق يكتبون فيها توقيعات لا تعدو عَرْض اصبع ، وكان الولاة يسرفون في الاضاءة بالشمع في الطرقات . وكان الولاة ينفقون المال في الأبنية والزخارف والتماويه . وبلغ الاسراف حَجَبَةَ البيت فأرادوا

(٢٧٨) ابن عبدالحكم ص ١٧١ — ابن الجوزي ص ٩٠

(٢٧٩) ابن الجوزي ص ٨٥ — هذا هو ما يسمونه بالمال الاحتياطي اليوم

كسوة جديدة ولم يَقدُمْ ما قبلها . وهكذا كلٌ من جهته ينفق ويسرف ، فهال عمرَ ذلك فأمر الا تسجل في طوامير [٢٨٠] ، والا يكتب فيها بالخط الجليل [٢٨١] والا عدّ في الكتابة ويفرّج ما بين الحروف ، والا يُكثر من الكلمات بل يُقلّل . ونفّذ العمال ذلك فوفروا شيئاً كثيراً وصارت الكتب بعد ذلك شبراً او نحواً منه [٢٨٢]

وامر عمر ان يبنى مسجد بني عدي بن النجار باللبن بناء قاصدا حين اخبروه بانهدامه وطلبوا بناءه . وكتب الى حجبة البيت حين ارادوا له كسوة جديدة كعادة الخلفاء قبله : اني رايت ان اجعل ذلك في اكباد جائعة فانه اولى بذلك من البيت ! وكتب الى ابي بكر بن حزم واليه على المدينة حين طلب شمعاً من سليمان يستضيء به الناس في طريقهم الى المسجد عند صلاة العشاء والفجر ، ومات سليمان فوقع الكتاب في يد عمر — فكتب الى ابن حزم يقول : اما بعد فقد قرأت كتابك الذي كتبت به الى سليمان بن عبد الملك ، وكنتُ المبتلى فيه بالنظر دونه : كتبتَ تسأله ان يقطع لك من الشمع مثل الذي كان يُقطع لمن قبلك ، وتذكر ان الشمع الذي عندك قد نفد ، ولعمري قد طالما رأيتك تخرج من منزلك الى المسجد في الليلة المظلمة الوحلة بغير ضياء ! ولعمري

---

(٢٨٠) الطوامير جمع طومار وهو المعروف عندنا اليوم بفرخ الورق (الفولسكاب)

(٢٨١) القلم الجليل الخط الذي تكتب به « الواجهات » .

(٢٨٢) ابن الجوزي ص ٧١ ، ٩٩

لأنت يومئذ خير منك اليوم . والسلام عليك .[٢٨٣]

الرفق بالرعية

تولى عمر الخلافة والناس على يأس من العدالة ، وما يستطيع سليب ان يطلب حقه . وكان السعيد الموفق من ردّ عن نفسه الظلم أو تجنّبه . وكان أسعد من هذا حظاً من غفل عنه السلطان واندرج في متاهة المغمورين فلا تناله ظنّة أو شبهة أو جوار — فلما جاء عمر لم يكتف بردّ المظالم وانما أخذ يضع عن الناس السخرة التي كانوا يُسخرونها في المصالح العامة . لأن عمر رأى فيها أموراً ظالمة فحطها عن كواهل المسخرين ، ثم لم يكتف فالهب مشاعر الناس ليردوا عن أنفسهم ، فاذا لم يفعلوا ولم يصلحوا إلا بالغشم والظلم فلا أصلحهم الله ![٢٨٤]

كان أهل مصر قد ظلموا ، وحلب أسامة بن زيد درّهم حتى انقطع ودمهم حتى انصرم . وأهل الجزيرة والكوفة والعراق قد اهلكهم الحجاج وأباد صلحاءهم ، وأهل المدينة والحجاز قتلوا وعُذبوا حتى لم يعد يُظن أن تقوم للمدينة قائمة مدى الازمان ، وقد أتت على ما تبقى بها وقعة الحرة . وأهل الموصل كثر فيهم السراق والنهابون . وأهل حمص سلبت أراضيهم وحوانيتهم . وإفريقية عبثت بها الهوامّ والعقارب . وأهل سمرقند غُدر بهم وظلموا . وأهل أذربيجان سلبت أموالهم — ثم عبر الظلم البحر الى الأندلس.. وسرت الى كل بلد وطأة من الظلم ، ثم طالت الوطأة

---

(٢٨٣) ابن الجوزي ص ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٣

(٢٨٤) ابن عبد الحكم ص ١٠٠ ، ١٢٣

فولد الشرّ شروراً ، وحسب كل مولود أن هـذا الذي ولد فيه انما هو العدل وانما هو حكم الاسلام . واخترع الظـلم لنفسه كل طريف فليس العجمي كالعـربي في الحق ، وليس المولى كالحر ولا المرأة كالرجل ولا أهل الذمة كالمسلمين .

ورآها عمر ثنايا أولى بأن تسوّى وعقاباً أحق بأن تهـدم ، فمضى يعمل : فارتفع بالأعجميّ والمولى والمرأة والذميّ ، وجعل لكلٍّ حقه الذي فرضه له الدين لم ينقص منه شيئاً ، وحين راح يزيد في اعطيات الجند المحاربين عشرة عشرة جعل العربي والمولى على سواء [٢٨٥] . ولم يجعل عمر من فرق في أصحاب العطاء سوى ما بين الكبير والصغير ، فكان من بلغ الخامسة عشرة فرَض له في المقاتلة ، ومن لم يبلغها فرض له في الذرية . وسار عمر بحكم النبي في الناس ، فان نافع بن عمر عرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال يوم أحد فاستصغره فردّه — وكان ابنَ اربع عشرة سنة — ثم عرضه يوم الخندق وقد صار ابنَ خمس عشرة فأجازه . وقد حدّث نافعٌ نفسُه عمرَ بن عبد العزيز بهذا الحديث وهو خليفة وعرف عمر منه فرق ما بين الكبير والصغير وكتب به الى عماله ليفرضوا لابن خمس عشرة في المقاتلة ولابن اربع عشرة في الذرية، ففعلوا [٢٨٦] .

●

وعرف عمر بن عبدالعزيز ان ابن آدم لم يَعْرَ من الذنوب، ولما

---

(٢٨٥) تاريخ العرب المطول ص ٢٨١ — ابن الجوزي ص ٨٧

(٢٨٦) الخراج لأبي يوسف ص ١٧٠

كان ابنه عبد الملك يستعجله لينفّذ الامور كان يقول له : لا تعجل يا بنيّ فانه لا قليل من الاثم فان الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة ، وأنا اخاف أن احمل الحقّ على الناس جملة فيدفعوه جملة ويكون من ذلك فتنة [٢٨٧] .

ولم يكن هذا يرضي عبدالملك الذي يمثل ثورة الشباب ويتخيّل مثله العليا ، ولكنه كان يسكت حين يدله ابوه على الطريق ويقدّم له الأدلة . ولكن الولاة الذين ساقهم عمر الى الرفق لم يعجبهم ما فعل عمر ، وحتى الولاة الذين اختارهم لعمله وحثهم على الرفق واطلق أيديهم في العمل لم يَرْضَوا فراجعوه فيما يأمر به من الشفقة والرفق بالناس ، وكان ممن راجعه عبد الحميد بن عبد الرحمن وأخوه صالح .

أهل العراق

لم تكن سياسة عمر تُرْضي ولاة العراق ، فعبد الحميد بن عبد الرحمن والي الكوفة وصالح بن عبد الرحمن وصاحب له بالعراق ويحيي الغسّاني صاحب الموصل كل هؤلاء وغيرهم يريدون اخذ الناس بالقسوة وسياستهم بالعنف ، فالسنة التي يعرفها اهل الكوفة جور وشدة ، وأهل العراق لا يصلحهم الا السيف ، والبصرة مخمورة لا تفيق الا على مثل سيف زياد بن أبيه ، وارض الموصل اكثر البلاد سرقا ونقبا ، فسياسة عمر هناك لا تصلح .

---

(٢٨٧) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٨ ـ ويقول صاحب الموافقات : وهذا معنى صحيح في الاستقراء العادي فكان ما كان أجرى بالمصلحة وأجرى على جهة التأنيس . الموافقات ج ٢ ص ٩٤

ولم يلبث هؤلاء الولاة أن راجعوا عمر فيها وبصّروه لمغبّة فعله أن يعدل معهم الى ما رأوا ويميل في كفة الجور ان كان يريد صلاح البلدان. فكتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن: ان أهل الكوفة قد اصابهم بلاء وشدة وجور، سنها عليهم عمال السوء. وان أقوم الدين العدلُ والاحسان، فلا يكوننّ شيء أهمّ الى نفسك أن توطنها لطاعة الله. وكتب الى صالح وصاحبه: خبيثين من الخبث رديئين من الرديء تعرضان لي بدماء المسلمين؟ ما أحد من الناس الا دماؤكما أهون عليّ من دمه. [٢٨٨]

واما أهل البصرة فكتب اليهم عمر يذكرهم بحرمة الخمر، ويدعو لهم في آخر كتابه لهم بذلك يقول: أسأل الله أن يزيد المهتدي منا ومنكم هدى، وان يراجع المسيء منا ومنكم التوبة في يسر وعافية [٢٨٩]. وفرقٌ ما هنالك بين كلام عمر هذا وكلام زياد ابن أبيه. وقد مسح عمر آلام أهل البصرة وفرّق بينهم مرةً مالا كلّ إنسان ثلاثة دراهم وأعطى الزّمْنى خمسين خمسين ورزق المفطومين [٢٩٠]

وأما اهل الموصل فقد كتب يحيى الغساني الى عمر يخبره أنه قدمها والياً فرآها من اكثر البلاد سرقاً ونقبا، وكتب يسأله أيأخذ الناس بالظنة ويضربهم على التهمة أم يأخذهم بالبيّنة وما

---

(٢٨٨) ابن الحكم ص ١٢٩

(٢٨٩) ابن الجوزي ص ١٠٢

(٢٩٠) الطبري ج٥ ص ٣٢٢

جرت عليه السنّة ؟ فكتب اليه عمر يقول : خذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة ، فان لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله ! قال يحيى الغساني : ففعلتُ ذلك ، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقاً ونقبا .

وكان رياح بن عبيدة مع عمر ، فأحب رياح ان يستأذنه ليرى أهله وضيعته بالعراق ، فلما كان اليوم الذي ودعه فيه قال له : يا أمير المؤمنين ، حاجتك ، أوصني بها ، فقال له عمر : حاجتي ان تسأل عن اهل العراق ، وكيف سيرة الولاة فيهم ورضاهم عنهم.

فلما قدم رياح العراق سأل الرعية فأخبرته بالخبر ، فلما رجع الى عمر سلّم عليه وأخبره بحسن سيرة الولاة في العراق وثناء الناس عليهم ، فقال عمر : الحمد لله على ذلك ! لو أخبرتني عنهم بغير هذا عزلتهم ولم استعن بهم بعدها ابداً [٢٩١]

اهل المدينة

ومرّ الزمن يمضي وعمر يحن الى المدينة ، قد علق قلبه بها ولم يتحول ، وأوصى بها الولاة وفرّق على أهلها حقوقهم ، وما جاءه رجل منها الا سأله عن اهلها كافة : الأشراف والتجار والمساكين والرجال والنساء . ولقد جاءه رجل مرة فسأله عمر قائلًا : ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا ؟ فقال الرجل : قد قاموا يا امير المؤمنين ، واغناهم الله ! وكان من اولئك المساكين من يبيع الخَبَط للمسافرين ، فالتُمِس ذلك منهم

(٢٩١) ابن الجوزي ص ٩٧ ـ الخراج لأبي يوسف ص ١١٩

بعد فقالوا : قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر [٢٩٢]

وقدم زياد بن أبي زياد المدنيّ رسولاً على عمر لعياش بن ربيعة في حوائج لعياش ، فلما اقبل أسرع فقال لعمر : السلام عليكم — ولم يتنبه الى أنه يسلّم على امير المؤمنين — فقال له عمر : وعليك السلام ، ثم تنبه زياد فأعاد السلام بالامارة فقال له عمر : يابن أبي زياد ، إنا لسنا ننكر الأولى التي قلت ! — وكان الكاتب يقرأ عليه مظالم جاءت من البصرة . فقال لزياد : اجلس ، فجلس على أسكفّة الباب — والكاتب يقرأ وعمر يتنفس الصعداء — فلما فرغ أخرج من كان في البيت حتى وصيفاً كان فيه ، ثم قام يمشي الى زياد حتى كان بين يديه ووضع يديه على ركبتيه .

قال زياد : وعليّ مدرعة صوف ، فقال لي عمر : يابن ابي زياد ، استدفأتَ في مدرعتك واسترحتَ مما نحن فيه ! ثم سألني عن صلحاء اهل المدينة : رجالهم ونسائهم ، فما ترك منهم احداً الا سألني عنه ، وسألني عن أمور كان أمر بها بالمدينة فأخبرته . . ثم قضى حوائج عياش وأعطى من ماله لزياد عشرين ديناراً وقال له : استعن بهذه ، فانه لو كان لك في الفيء حق اعطيناك حقك ! فأبى زياد أن يأخذها فلم يزل به حتى أخذها ، ثم كتب الى عياش يسأله ان يبيعه زياداً ليعتقه فأبى عياش أن يبيع زياداً واعتقه [٢٩٣] . وقد قالوا : إن عمر نزل عن موضع كان عليه الى الأرض وقال : إذا دخل عليك

---

(٢٩٢) ابن الجوزي ص ٧٦

(٢٩٣) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٩

رجل لا ترى لك عليه فضلاً فلا تأخذ عليه شرف المجلس [٢٩٤] ثم قال : اني أُعْظِمُ ان اكون في موضع اعلو فيه على زياد . فلما قضى زياد ما يريد خرج ، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد وأصحابه يأخذون منه حاجاتهم ، فنظر الخازن فاقتحمته عين عمر ففعل ما أمر به ، فدخل زياد فأخذ لنفسه بضعةً وثمانين درهماً . فلما رأى الخازن ذلك قال : امير المؤمنين أعلم بمن يسلط على بيت المال ! [٢٩٥]

وخرج عمر يوماً فركب هو ومزاحم ، وكان كثيراً ما يركب فيلقى الركبان يتجسس الأخبار عن القرى ، فلقيهما راكب من اهل المدينة ، وسألاه عن الناس وما وراءه ، فقال : ان شئتما جمعت لكما خبري ، وان شئتما بعضته تبعيضاً . فقال عمر : بل اجمعه . فقال : اني تركت أهل المدينة والظالم بها مقهور والمظلوم منصور والغنيّ موفور والعائل مجبور ، فسرّ بذلك عمر وقال : والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحبّ اليّ مما طلعت عليه الشمس [٢٩٦]

ولقد قال رياح بن حيان ـ وكان على المدينة ـ : ما قدم علينا بريد لعمر بن عبد العزيز الا باحياء سنة او قسْم مال او أمرٍ فيه خير [٢٩٧] ، وقد صارت قريش والانصار تدعو لعمر

---

(٢٩٤) البيان والتبيين ج ٣ ص ٨٤
(٢٩٥) ابن عبد الحكم ص ٥٢
(٢٩٦) ابن عبد الحكم ص ١٣٥
(٢٩٧) ابن الجوزي ص ٧٥

بالبقاء حتى يردَّ عنهم المكاره ، حتى قالت فاطمة بنت الحسين :
لو كان بقي لنا عمر بن عبد العزيز ما احتجنا بعده الى شيء .

قال جرير :

أشبهتَ من عمر الفاروق سيرته ... قاد البرية وائتمت به الأمم
تدعو قريش وأنصار الرسول له ... أن يُمْنَعوا بأبي حفص وما ظلموا

وقال :

يعود الحلم منك على قريش ... وتَفْرُج عنهم الكرَب الشدادا
وقد آمنتَ وحشتهم برفق ... ويعيي الناسَ وحشُك أن يصادا
وتبني المجد يا عمر بن ليلى ... وتكفي المحل السنة الجمادا [٢٩٨]

أهل مكة

ولما ردَّ عمر مظالم أهل مكة وزارها ثم خرج ، مضى معه رجل مع من يشيِّعه وكان احد الولاة حبسه وأخذ ماله غصباً واستحلفه ألا يخاصمه ابدا ، فشكا الرجل الى عمر قائلاً : ظُلمتُ ولا أستطيع أن أتكلم ! فأدرك عمر انه أُخذت عليه يمين ، فجاء بالوالي ونكف بالخيزران بين عينيه في سجدته وقال له : هذه غرّتني منك ! ثم قال للرجل : اذهب فقد رددتُ عليك مالك ولا حِنْتَ عليك ! [٢٩٩]

أهل الرقة وأهل ايلة

اما الحسن والحسين فقد رأيا أنّ طالب الحاجة اليهما لا يستحق

---

(٢٩٨) الكامل للمبرد ج ١ ص ٤٠١
(٢٩٩) ابن عبد الحكم ص ١٣٨

الا بقدر علمه ، فان كان عالماً كل العلم أخذ كل حاجته ، وان كان عالما نصف العلم أو ثلثه او ربعه اخذ بقدر ما يعلم ، وذلك اذا لم يكن من أصحاب الفروض والصدقات . واما عمر بن عبد العزيز فقد امر بمالٍ للرزنة وأمر أن يُعطى منه كلّ من مدّ يده لعلمه بحاجة اهلها واضطرارهم .

أهل سمرقند وأذربيجان

وجاء رجل من أذربيجان فقام بين يدي عمر يشكو عامل بلده فقال : انه عدا عليّ فأخذ مني اثني عشر الف درهم فجعلها في بيت مال المسلمين . فقال عمر اكتبوا الساعة الى عاملها حتى يرده عليه [٣٠٠] . واما أهل سمرقند فأرسلوا وفداً يشكو قتيبة بن مسلم وما فعله معهم من الغدر والظلم فكتب عمر من فوره الى سليمان ابن ابي السرح واليه على سمرقند ان ينصب لهم قاضيا لينظر في امرهم فأجلس سليمان القاضي ورضوا بما قضى .

أهل خراسان

وكتب الجراح بن عبد الله الحكمي الى عمر : اني قدمت خراسان فوجدت قوماً قد ابطرتهم الفتنة ، فأحب الأمور اليهم أن يعودوا ليمنعوا حق الله عليهم ، فليس يكفهم الا السيف والسوط ، فكرهت الاقدام على ذلك الا بإذنك . فكتب اليه عمر : يابن أم الجراح ، انت احرص على الفتنة منهم ، لا تضرب مؤمناً معاهداً الا في الحق ، واحذر القصاص ، فانك صائر الى من يعلم خائنة

---

(٣٠٠) ابن الجوزي ص ٧٥

الأعين وما تخفي الصدور ، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغـــيرة ولا كبيرة الا احصاها [٣٠١] .

عهد السباق

لقد اشفق عمر على الناس ولكنه ابى ان تخرج بهم الشفقة عن حدود الخير ، ولم تكن الشفقة إرخاء للحبل من اعناقهم فان ارخاء الحبل من اعنـاق الناس يدفعهم الى الشرور ، ولم يخرج عمر بن عبد العزيز عن حدود الشفقة غير مرة او مرتين اضطر لها اضطرارا لأنه رأى إن لم يفعل أن يرجع الناس الى بلادهم مقهورين .

كان سليمان بن عبد الملك قد أمر اهل مملكته ان يقودوا الخيل لسبق بينها . فأرسل الناس من اطراف الأرض خيلهم تجري في السباق ، وقلّ ان تكون قرية الا قادت اليه خيلا ، فمات سليمان قبل ان تجري الحلبة ، وغصت دمشق بالوافدين اليها من الناس ومعهم الخيل الجياد ، فلما ولي عمر لم تعقد الحلبـة ، وابى عمر ان يجريها ، فاحتال عليه الناس وجعلوا يقولون له : يا امير المؤمنين تكلّف الناس مؤونات عظاماً وقادوها من بلاد بعيدة ! وفي جرْي الحلبة يا امير المؤمنين غيظ للعدو ! فلم يزالوا يكلمونه حتى اجرى الحلبة ، واعطى الذين سبقوا ، ثم رجع فاعطى الذين لم يسبقوا ولم يخيبهم ولكنه اعطاهم دون ذلك [٣٠٢] . وهذه المرة لم يجاوزها في امر السباق فانه امر من بعدها الا يركض فرس في غير حق [٣٠٣]

---

(٣٠١) تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ١٨١ ـ ابن الاثير ج ٥ ص ٢٤

(٣٠٢) ابن الجوزي ص ٥٦

(٣٠٣) ابن عبد الحكم ص ٥٥

هذه المجاوزة كانت في السباق ، اما المجاوزة الأخرى فكانت فيما يشبه اللهو ، وتلك ان خلفاء الامويين سنّوا الغناء واباحوه . وكان يزيد بن معاوية اول من سنّ الملاهي واستجلب المغنّين . وشمل عبدُ الملك برعايته ابن مسجح : واستقدم الوليدُ ابن سريج ومعبداً الى دمشق ، ثم ناهض سليمان بن عبد الملك المغنين ولكنه استدعى الدّلال المغني سراً من المدينة الى دمشق ليغني له . فلما جاء عمر بن عبدالعزيز الخلافة حال بين الشعر والغناء [٣٠٥] .

وانما بقيت في عمر رقة في الطبع وفضل في الحلم ، فسمع للغناء في قضية ذات خبر طريف : قالوا انه اتى من المدينة الى العراق فتىً يطلب جارية — وُصفت له — قارئة قوالة مغنية ، فوجدها عند قاضي بلدة ، ولم يكن القاضي يعلم صفاتها ، فلما غنّت امام طالبها في حضرة سيدها القاضي تقول :

الى خالد حتى أنخنا بخالد فنعم الفتى يُرْجى ونعم المؤمل

فرح القاضي بجاريته وسرّ بها وغشيه من الطرب امرٌ عظيم ، وقال لها : هاتي — بأبي انت وأمي — شيئاً ، فغنت :

اروح الى القصّاص كل عشية ارجّي ثواب الله في عدد الحطى

فزاد الطرب على القاضي ، ولم يدر ما صنع ، فجثا على ركبتيه وجعل يأتي بحركات ويقول اقوالاً تدل على انه قد سَفِه . فلما امسكتْ قال القاضي للفتى : انصرف ، فقد كنا فيها راغبين قبل ان نعلم ، ونحن الآن فيها ارغب ! فانصرف الفتى .

وبلغ عمرَ بن عبدالعزيز ما فعل القاضي وما قال ، فقال :

---

(٣٠٤) تاريخ العرب المطول ص ٣٤٨ — معالم الموسيقى العربية ص ٢٩

قاتله الله ! لقد استرقه الطرب ! وأمر بصرفه عن عمله ، فلما صُرِف قال القاضي : نساؤه طوالق لو سمعها عمر لقال اكثر مما قلت ، فبلغ ذلك عمر فأشخصه وأشخص الجارية ، فلما دخلا قال للقاضي : أعد ما قلت ، فأعاده ، ثم قال للجارية : قولي : فغنت تقول :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيسٌ ولم يسمرْ بمكة سامر
بلى نحن كنـــا اهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

فما فرغت حتى اضطرب لها عمر اضطراباً بيناً واقبل يستعيدها ثلاثاً ، وقد بلّت دموعُه لحيتَه ، ثم اقبَل على القاضي فقال : لقد قاربتَ في يمينك فارجع الى عملك راشداً !(٣٠٥)

درس قاس

ولكنّ الرقة في موضعها لم ينقلها عمر الى الموضع الذي لا تصلح فيه وانما استخدم العنف . فقد دخل عليه شيخ من اهل المشرق هو وابن اخ له فاختصما عنده ، وكان الشيخ قد اطال شاربيه حتى غطيا فمه وسال شعرهما عليه . وبينما هذا الشيخ يريد الصلة والصلح اذ التوى به الشر فمال الى اللجاج ثم غضب فدعته نفسه الى القطيعة ، فنظر اليه عمر متعجبا وقال له : ما رأيت احلى منك ولا أمر ولا ابعد ولا اقرب ، بينما انت تريد الصلة والصلح دعتك نفسك الى القطيعة والظلم ! قال عمر هذا ثم نادى قائلًا : يا مينا ، فانفرج الباب عن حجام لعمر قد أقبل مسرعاً يتلقى امر الخليفة ، فلما رآه عمر قال له: أخرج هذا الشيخ من الصف ثم خذ لي من شاربه ثم ائتني به ؛ وفعل مينا الحجام ما أمر به ، ورد الرجل الى مكانه

(٣٠٥) شذرات الذهب ج ١ ص ١٢٠

من الخصومة بين يدي الخليفة ، فقال عمر : هذا اطيب ، وأنظف مع الفطرة . هلم الى الصلح أيها الشيخ أنت وابن أخيك ! قالا : نعم . فأصلح ذات بينهما ، فرفع يديه الى السماء وقال : الحمد لله !

رحمة الضعفاء

ولم يقتصر رفق عمر على فريق دون فريق ، بل كلما ازداد الناس ضعفاً ازداد عمر بهم رفقاً ، وقد رقّ فوظف القواد للعميان [٣٠٦] ، وقد أمر أن يعاقب الناس على قدر ذنوبهم — لا كما فعل وهو والي المدينة ونبّهه مزاحم مولاه الى مجاوزته الحدّ في العقوبة . وأمر ألا يوثق السجناء فيمنعهم الوثاق من الصلاة وهم قيام ، وأمر ألا يبيت أحد منهم في قيده الا اذا كان مطلوباً بدم وقد اجرى عليهم من الصدقات ما يصلحهم في طعامهم وأدمهم [٣٠٧]

وحرّم عمر أن يقتل النساء والصبيان والأسرى والجرحى في الحروب ، وجعل للأسير أن يتصرف في ماله كيف شاء فهو ماله. ولم يقتل من الأسرى سوى واحد من الترك ، قال له رجل ممن جاء بهم : يا امير المؤمنين ، لو كنتَ رأيت هذا وهو يقتل المسلمين لكثر بكاؤك عليهم ! فأمر بقتله [٣٠٨]

وجيء عمر ذات يوم بسارق فشكا اليه حاجته فعذره عمر وعفا عنه

(٣٠٦) ابن عبد الحكم ص ٤٦ ، ١٢٤

(٣٠٧) الخراج لأبي يوسف ص ١٥٠ — حياة الحيوان ج ١ ص ٦٨ — ابن الجوزي ص ٩٧ .

(٣٠٨) فجر الاسلام ص ٨٧ ط ٦

وأمر له بنحوٍ من عشرة دراهم ٣٠٩

لقد كان عمر اعطف الناس قلباً على الرجال اذا ضعفوا وكثر اولادهم ، وعلى الأرامل اذا اصابتهن الحاجة . وقد جاءه رجل فقام بين يديه فقال له : يا امير المؤمنين ، اشتدت بي الحاجة وانتهت بي الفاقة ، والله سائلك عن مقامي هذا بين يديك . فقال له : ما عيالك ؟ فقال : خمسة ، انا وامرأتي وثلاثة اولاد ، ففرض له ولأولاده .

وخرج بريد من مصر فدفعت اليه فرتونة السوداء، مولاة ذي اصبح، كتاباً تذكر فيه ان لها حائطاً قصيراً، وانه يُقْتَحَم عليها منه فيُسرق دجاجها ، فكتب عمر : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عمر امير المؤمنين الى فرتونة ... بلغني كتابُك وما ذكرتِ من قِصَر حائطك وانه يُدخل عليك فيه فيُسرق دجاجك ، فقد كتبتُ لك كتاباً الى ايوب بن شرحبيل ، آمره ان يبني لك ذلك حتى يحصّنه لك بما تخافين ان شاء الله والسلام .

وكتب الى ايوب بن شرحبيل - وكان ايوب عامله على صدقات مصر وحربها - من عبدالله عمر امير المؤمنين الى ابن شرحبيل ، اما بعد فان فرتونة مولاة ذي اصبح كتبت اليّ تذكر قصر حائطها وانه يسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها . فلما جاء الكتاب الى ايوب ركب بنفسه حتى اتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها سوداء مسكينة ، فأعلمها بما كتب به امير المؤمنين فيها وحصنه لها .

---

(٣٠٩) ابن الجوزي ص ٥٧ ، ٧٩ - ابن عبد الحكم ص ٦٥ ، ١٧٧

ولم تكن فرتونة السوداء تعرف حرفاً من حروف العدالة ، ولكنها كانت تذوق لها نفس المعنى الذي يذوقه الفلاسفة والعلماء، فشكت الى الخليفة بدمشق ، وربما لم تكن تعرف المسافة بين دمشق وجيزة الفسطاط .

وقدمت الى عمر امرأة من العراق ، فلما صارت الى بابه قالت : هل على أمير المؤمنين حاجب ؟ فقالوا : لا ، فلجي ان أحببتِ – وكان لمثلها ان تدخل من غير اذن – فدخلت المرأة على زوجته فاطمة وفي يدها قطن تعالجه ، فسلمت وجلست ، ثم رفعت بصرها فلم تر في البيت شيئاً له بال ، فقالت : انما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخراب ! فقالت لها فاطمة : انما خرَّب هذا البيت عمارة بيوت امثالك .

وأقبل عمر حتى دخل الدار ثم اقبل على المرأة فقال : ما حاجتك ؟ فقالت : امرأة من اهل العراق ، لي خمس بنات كُسُل كسد قد رغب عنهن الأزواج لفقرهن فجئتك ابتغي حسن نظرك لهنّ . فأخذ الدواة والقرطاس وكتب الى والي العراق فقال : سمي كبراهن ، فسمتها ففرض لها ، ثم فرض للثانية والثالثة والرابعة والمرأة تحمد الله . فلما فرض للأربع استفزها الفرح فدعت له دون ان تحمد الله ، فرفع يده وقال : قد كنا نفرض لهنّ حين كنت تولين الحمد أهله ، فمري هؤلاء الأربع ان يفضن على هذه الخامسة مما اعطاهنّ الله ، فمضت المرأة بالكتاب الى العراق .

الخوارج والحرورية

ورفق عمر بالحرورية والخوارج حتى امتلك قلوبهم : ودخل

عليه ناس من الحرورية فذاكروه شيئاً ، فأشار اليه بعض جلسائه ان يرعبهم ويتغيَّر عليهم ، فلم يزل عمر يرفق بهم حتى أخذ عليهم ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم ما بقي ، فخرجوا على ذلك.

فلما خرجوا ضرب عمر ركبة رجل يليه من أصحابه فقال : يا فلان ، اذا قدرتَ على دواءٍ تشفي به صاحبكَ دون الكيّ ، فلا تكوينّه ابدا [٣١٠]

أهل الذمة

هذه التسمية تشريف للنصارى ابتدعها لهم الاسلام اذا دخلوا في عهده ولم يحاربوا المسلمين ، وهؤلاء عاملهم عمر معاملة قامت على اساس الاحترام والودّ [٣١١]. بل ان حرسه كانوا يدفعون عن اهل الذمة المظالم دون ان يأذن لهم عمر ، ولقد تفقّد يوماً حارسه عمرو بن مهاجر ثم جاءه فقال له : اين كنت ؟ قال : كنتُ خارجاً ادفع مظلمة عن رجل من اهل الكتاب [٣١٢] .

كان عمر حقاً يعامل اهل الذمة على اساس الودّ والاحترام فلم يحب ان ينسب اليهم انهم غير امناء كما فعل الحجاج ، وكان الحجاج قد ابتدع ان يُختَمَ على بيادرهم حتى يؤدوا الجزية ، فكره عمر ان يفعل فعل الحجاج وان يؤذي كرامة اهل الذمة [٣١٣]

وما أراد عمر ارهاق أهل الذمة وهم دافعو الجزية وزارعو

---

(٣١٠) ابن الجوزي ص ٦٢

(٣١١) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٨٤

(٣١٢) ابن عبد الحكم ص ١٦٤.

(٣١٣) ابن الجوزي ص ٨٨

الأرض وإنهم لا يعاشرون المسلمين سنة أو سنتين ، وإنما هو لبقية الزمن كله[٣١٤] وما ونى عمر في تعليم الولاة حقوق الذميين وقد أمر زيد بن عبد الرحمن عامله على الكوفة ان يكف عن ارهاقهم فكف ، وكتب الى عبد الرحمن بن نعيم : لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه ، [٣١٥]. وحين اراد أمراء بني أمية ان يتساهلوا في البلدان أخذ عليهم ألا يفسدوا على أهل الذمة ، وألا يتناولوا أحدا من الأمة [٣١٦] .

وخفف عمر من أثقال الجزية المفروضة على النصارى في كل بلد حتى في قبرص وايلة [٣١٧] ونجران في جنوبي بلاد العرب [٣١٨] وكان على اهل أيلة ثلثمائة دينار حين قدم يوحنا بن رؤبة على النبي صلى الله عليه وسلم من ايلة وهو في تبوك ، فصالح على الجزية ، وقرر على كل حالم بأرضه في السنة ديناراً فبلغ ذلك ثلثمائة دينار ، واشترط عليهم قِرى من مرّ بهم من المسلمين ، وكتب لهم كتاباً أن يُحفظوا ويُمنعوا ، فكان عمر لا يزداد على أهل أيلة عن الثلثمائة دينار شيئاً [٣٢٠]

ولم يكن عمل عمر في عزل اسامة بن زيد صاحب خراج مصر

---

(٣١٤) ابن عبد الحكم ص ٦٧
(٣١٥) الطبري ج ٥ ص ٣١٤
(٣١٦) ابن الجوزي ص ٧٧
(٣١٧) أيلة هي العقبة اليوم.
(٣١٨) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٨١
(٣١٩) معجم البلدان ج ١ ص ٣٩١

الا مؤازرة لقبطها . ولما كان زريق بن حيان على مكس مصر كتب اليه عمر يأمره ان ينظر في الصدقات فيأخذها من الأموال العَيْن ومما ظهر من التجارات، من كل اربعين ديناراً ديناراً، وما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين ديناراً، فان نقصت تلك الدنانير فلا يأخذ منها شيئاً . وأما أهل الذمة فيؤخذ مما يديرون من تجاراتهم من كل عشرين ديناراً ديناراً ، فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ثم يدعها فلا يأخذ منها شيئاً [٣٢٠]

●

ويبدو أن زيف التاريخ على عمر فيما يتصل بأهل الذمة جاء من انه كان قد نزع قبط مصر عن كُورها ، وكانت في أيديهم حسبة المواريث . ولما كانت جسبة المواريث عملاً يتصل بالدين فقد نزعها عمر عنهم واستعمل عليها المسلمين لأنه عمل أشبه بعمل القاضي منه بعمل المحاسب . ولما لم يكن هناك تشريع للمواريث بين النصارى فقد جعلهم يتوارثون كما يتوارث اهل الاسلام . [٣٢١] أما ما عدا ذلك فلا .

ولم يغبَ عن بال عمر ان بقاء دور العبادة من صلاح الأمة ، وأن الكنائس من دور العبادة التي تتهذب فيها النفوس وتصفو ، وقد قدم عليه اثنان من الخوارج فسألاه عن أهل العهود

---

(٣٢٠) الخراج لأبي يوسف ص ١٣٧

(٣٢١) انظر النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣٨ – الخراج لابي يوسف ص ١٣١

فقال لهم عهودهم ، فسألوا هل يكلفهم فوق طاقتهم؟ فقال : لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، فسألوه أن يخرّب الكنائس فأبى عمر عليهم وقال لهم : هي من صلاح رعيتي! [٣٢٢] ثم لم يهدم عمر كنيسة قديمة قط ولكنه هدم ما استحدث عملا بما كان مسنوناً حين ذلك في العهود [٣٢٣]

الرفق بالحيوان

وما زال رفق عمر يمتد به حتى أصاب الحيوان منه حظ ، وكان ظلم النفوس أطغاها فشدّ الناس اللجم الثقال على الخيل وحمّلوا الدواب ما لم تحمل ونخسوها بالحديد لتسرع ، وأركضوا الأفراس في اللهو واللعب ، فنهى عمر ان يجعلَ البريدُ فى طَرف السوط حديدة ينخس بها الدابة . ونهى عن اللجم الثقال [٣٢٤] . ونهى عن ركض الفرس في غير حق . وكان فيما كتب الى عبد الرحمن بن نُعَيْم : ولا تجر الشاة الى مذبحها ، ولا تحدّوا الشفرة

---

(٣٢٢) ابن عبد الحكم ص ١٧٤

(٣٢٣) اكثر صاحب تاريخ العرب المطول من اتهام عمر بالاساءة لاهل الذمة وكرر ذلك في مواضع كثيرة من كتابه . والحق ان عمر لم يحدث في معاملتهم شدة من عنده ، وانما كانوا هم الزموا انفسهم شروطا عند الفتح اشترطوها لعمر بن الخطاب وكان عليهم عهود للنبي من قبل فلما جاء عمر اكدها. وقد ذكر ذلك ابو يوسف القاضي لهرون الرشيد ـ الخراج لأبي يوسف ص ١٢٧ ، ١٣٠ ـ العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٦ ـ تاريخ العرب المطول ص ٣١٢ ـ تاريخ دمشق ص ٥٦٩ ، ٥٧٤

(٣٢٤) الخراج لأبي يوسف ص ١٨٦

على رأس الذبيحة [٣٢٥] . وكتب الى والي مصر يقول : إنه بلغني أن بمصر ابلًا ثقالات يحمل على البعير منها ألف رطل فاذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفنّ انه يحمل على البعير اكثر من ستمائة رطل [٣٢٦]

الاصلاح

وما يعمر الناس الا لأمرين : أمر يراد به الزينة والأبهة وآخر يراد به زيادة الخصب والانتاج . أماذاك فحشد عمر له عزماً وشدة، ولو لم تعترضه بعض الأمور لقضي عليه في جميع البلدان وقوض منه كل بنيان. وأما هذا الذي يراد به الخصب فقد جعله كل همه ، ولم يأمر باستنباط ماء أو انشاء خان او اصلاح ارض الا اذا وثق أن الماء والخان والارض ستنفع الناس . ولقد جاءه عدي بن الفضَيْل يستحفره بئراً بالعذبة فقال له : وأين العذبة ؟ قال عدي : على ليلتين من البصرة ، فتأسف عمر ألا يكون بمثل هذا الموضع ماء ، فأحفره واشترط عليه ان يكون اول شارب ابن سبيل [٣٢٧]

ولما أمر عمر بعمل الخانات في البلدان القاصية كتب الى سليمان ابن أبي السري : ان اعمل خانات فمن مرّ بك من المسلمين فأقرُوه

---

(٣٢٥) الطبري ج ٥ ص ٣٢٤

(٣٢٦) ابن عبد الحكم ص ١٦٦

(٣٢٧) اول شارب : اكثره . الكامل للمبرد ج١ ص ٩١ــ وعذبة هذه موضع على ليلتين من البصرة كانت فيه مياه طيبة : ذكره لقيط بن يعمر الايادي فقال: تامت فؤادي بذات الجزع خرعبة * مرت تريد بذات العذبة البيعا: معجم البلدان ج ٦ ص ١٢٠ واظنها من بلاد مملكة الحيرة التي دمرت مدينتها .

يوماً وليلة ، وتعهدوا دوابهم . ومن كانت به علة فأقروه يومين ، وان كان منقطعاً فابلغة بلده [٣٢٨]

أما اصلاح الارض للزراعة فقد جعله جلّ همه. ومما كتب الى عبدالحميد بن عبدالرحمن في امر الخراج : وانظر الخراب فان أطاق شيئاً فخذ منه ما أطاق واصلحه حتى يعمر [٣٢٩]

مسجد دمشق

كان المسجد الجامع في دمشق في أقدم الأزمنة « بيتاً للمشتري» أحد آلهة الكلدان اذ كان المشتري طالعَ الديانات والتأله ، ثم صار هذا البيت في العهد النصراني كنيسة لأهل دمشق ، وجعلت للقديس يوحنا . ولما فتح المسلمون دمشق فتحوا شطراً منها عنوة وشطراً منها صلحاً : دخل أبوعبيدة من غربيها بالأمان ودخل خالد بن الوليد من شرقيها بالسيف ، ثم التقى الجيشان بالكنيسة الكبرى [٣٣٠] ، ولكن المدينة عدت مفتوحة كلها صلحاً إشفاقاً بأهلها واكراماً لهم . هذا في المدينة ، أما من خارج أسوارها فقد عدّ كله مفتوحاً عنوة .

وأبقى المسلمون على الكنائس القديمة في الأرض المفتوحة بدمشق عنوة او صلحاً لم يمسوها . وأبقوا حرية العبادة في داخلها لأهلها ، وكتب خالد بن الوليد لأهل دمشق : اني قد أمنتكم

---

(٣٢٨) تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ١٨٤

(٣٢٩) الخراج لابي يوسف ص ٨٦

(٣٣٠) مسالك الابصار ج ١ ص ١٨٣

على دمائكم وذراريكم واموالكم وكنائسكم ان تُهْدَم اوتسكن . . .
وشهد على ذلك أبو عبيدة عامر بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان
وشرحبيل بن حسنة ٣٣١

اما الكنيسة الكبرى فقد شطرت شطرين ، إشارة للعنوة والصلح ، فبقي نصفها للنصارى وصار نصفها مسجداً . وأقيمت العبادة متجاورة في النصفين من الفريقين ، فتأذى المسلمون لمجاورة النصارى ، وتأذى النصارى لمجاورة المسلمين في العبادة . وظل الأمر على حاله منذ الفتح الى أن جاء الوليد بن عبد الملك فاحتال للأمر حتى خلص المسجد كله للمسلمين برضا أهل دمشق .

وكان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام من افضل خلفائهم ، فقد بنى المساجد ووضع بها المنابر : مسجد دمشق ومسجد المدينة والمسجد الأقصى ، وبنى قبة الصخرة . وحين أراد أن يبني مسجد دمشق هدم النصف الذي كان كنيسة وأدخله في المسجد بعد رضا الدمشقيين حيث صالحهم على كنيسة مريم ٣٣٢

---

(٣٣١) تاريخ مدينة دمشق ص ٥٦٩

(٣٣٢) ابن الاثير ج ٥ ص ٤ ـ حياة الحيوان ج ١ ص ٦٦ ـ هذه الكنيسة تسمى اليوم بالمريمية وهي عند الباب الشرقي لدمشق القديمة قريباً من الغوطة ، وفي المدخل المؤدي اليها منارة مسجد قد عطل . وقد زرتها في يوم السبت الرابع عشر من حزيران سنة ١٩٥٣ ودخلت اليها فرأيت في جدارها الامامي تجويفاً كتجويف المحراب وضعت فيه صورة للسيد المسيح عليه السلام .

وكانت هي الاخرى شطرين في يد المسلمين والنصارى . فلما تراضوا شرع الوليد في بنائه وتحسينه وتحصين بنائه ، أبقى منه ما ابقى وجدّد ما جدّد [٣٣٣].

وبدأ الوليد في بناء الجامع في السنة التي تولى فيها عمر بن عبد العزيز المدينة ، ودام العمل في بنائه وزخرفته بالجد والاجتهاد اكثر من عشرين عاماً ، وتم في عهد سليمان ، وعمل في بنائه اثناعشر الف صانع حتى صار أحد عجائب الدنيا القديمة ، وكان كذلك من قديم لتركيبه على الفلك [٣٣٤].

وكان جدار المسجد قصيراً فأعلاه الوليد ، ولما احتاج الى الصناع من خارج بلاده تهدّد ملكَ الروم بالغزو اذا لم يعنه بالعمال فاستجاب له فوجّه إليه مائتي صانع كما سأل [٣٣٥] وبينما كان العمال يبنون سقطت قبة الجامع ، وكأنما قد خان عمال بيزنطة فتهاونوا

وتجويف المحراب كله مغطى بالقاشاني الملون بالزرقة والبياض. وكانت جدران الكنيسة كلها كذلك غير ان حريق سنة ١٨٦٠ م اتى عليه. وقد سألت فقيل لي ان مساحة الكنيسة تقرب من مساحة المسجد الاموي ولها ارض زراعية حولها تسمى ارض البطريركية صارت بها الان مبان كثيرة .

ولا توجد كنيسة باسم توما ولكن حيا بكامله في دمشق يقال له باب توما وبه ما يقرب من سبع كنائس للطوائف المسيحية المختلفة. وهذا الحي يمتد حتى يجاور الكنيسة المريمية .

(٣٣٣) مسالك الابصار ج ١ ص ١٧٩

(٣٣٤) شذرات الذهب ج ١ ص ٩٧

(٣٣٥) مسالك الابصار ج ١ ص ١٨٣

لتسقط القبة وشيكاً إذا غادروا دمشق ، ولكن الوليد فطن لذلك فرجع فأقامها ، وأقام على الصناع أخاه سليمان ، لا يبرح حتى يتموا ما يبنون باتقان ، فبنيت القبة مرة ثانية بناء محكماً ، وعقد رأسها بالذهب وسُقّف المسجد بالرصاص .

وقد أسهم في بناء المسجد أهل دمشق ونواحي الشام ثم الجند من أهل مصر وأهل العراق ، وكان يَفْضُل عند الرجل من أهل الشام الفَلْس ورأس المسمار فيجيء به حتى يضعه في الخزانة من أجل المسجد ، وحُشِدَ الناس ليجمعوا له الرخام والمرمر ما لا تُدْرَى قيمته ، وزينت جدرانه بالنقوش والفسيفساء .

انفق فيه الوليد أربعمائة صندوق ، في كل صندوق أربعة عشر الف دينار ، ثم بلغ الوليدَ أن أهل دمشق أرجفوا به وتكلموا فقالوا : محق الوليد بيوت الأموال في نقش الخشب وتزويق الحيطان ! فقال لهم : يا أهل دمشق ، إني رأيتكم تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فاحببت أن يكون مسجدكم الخامسَ ! ثم مات الوليد ولم يتم بناء المسجد فأتمه أخوه سليمان . ولما تم البناء والزخرف كان فيه ستمائة سلسلة من الذهب تحمل القناديل وما زالت به حتى جاء عمر بن عبد العزيز [٣٣٦]

●

فلما جاء عمر بن عبد العزيز ومضى قدماً في تحقيق العدالة والرفق بالناس قالت النصارى : يا أمير المؤمنين ، قد علمت حال كنيستنا ! قال : انها صارت الى ما ترون ، وان ما كان خارج

(٣٣٦) حياة الحيوان ج ١ ص ٦٦

المدينة فتح عنوة ، ونحن نرد عليكم كنيستكم ونهدم كنيسة توما فانها فتحت عنوة ونبنيها مسجداً ! فقالوا : بل ندع لكم هـذا ودعوا كنيسة توما .

قال ابن المعلّى : وبلغني عن الوليد بن مسلم عن ابن جابر انهم رفعوا الى عمر بن عبد العزيز ما أخذوا عليه العهد في كنائسهم ، فكلمهم ورفع لهم الثمن حتى بلغ مائة الف فأبوا ، فكتب الى محمد ابن سويد النهري أن يدفع اليهم كنيستهم الا أن يرضيهم فأعظم الناس ذلك — وفيهم بقية أهل الفقه — فشاورهم محمد بن سويد متولي دمشق فقال الفقهاء : هذا امر عظيم ! تدفع اليهم مسجدنا وقد أذّنا فيه بالصلاة ؟ يهدم ويصير كنيسة ؟ فقال رجل منهم : ها هنا خصة ، لهم كنائس عظام حول المدينة : دير مرّان وباب توما والراهب وغيرها ، ان أحبوا ان نعطيهم كنيستهم ، ولا يبقى حول دمشق كنيسة الا هدمت ، وان شاءوا تركت هذه الكنائس ونسجل لهم سجلا . ثم عرضوا عليهم ذلك فقالوا : أنظرونا ننظر في امرنا ، فتركهم ثلاثا ، فقالوا لمحمد بن سويد : نحن نأخذ الذي عرضت علينا ، ونكتب الى الخليفة نخبره بذلك ويسجل هو لنا بامانٍ على ما في الغوطة ، فكتب الى عمر فسرّه ذلك وسجل لهم كنائسهم انهم آمنون ان تخرب او تسكن ، وأشهد لهم شهوداً بذلك [٣٣٧]

ولم يغب الزمن كثيراً ، وفكر عمر في الاصلاح . فذكر الكعبة ومسجد المدينة ومسجد دمشق ، وذكر صفائح الذهب وسلاسل

(٣٣٧) ابن الاثير ج ٥ ص ٥ — مسالك الابصار ج ١ ص ١٩٠

القناديل والرخام والفسيفساء ، وكان العدل عنده واسعاد الناس اولى من هندسة المدن وتنظيمها وترميم المساجد وتذهيبها فقال : رأيت أموالاً انفقت في غير حقها ، فأنا مستدرك منها فرادُه في بيت المال ! : أعمد الى ذلك الفسيفساء والرخام فأقلعه وأطيّنه ، وأنزع تلك السلاسل وأجعل مكانها حبالاً ، وأنزع تلك البطائن وابيع جميع ذلك من مسجد المدينة ومسجد دمشق . ثم امتدت يد عمر الى السلاسل الذهبية اول ما امتدت لأنها أنفقُ في سوق الشراء ، فأخذها وباعها وجعلها في بيت المال ، واتخذ عوضها صُفْراً وحديداً [٣٣٨]

وعرف اهل دمشق فاشتد عليهم الأمر ، وبينما كان عمر في دير سمعان ذات زيارة خرج اليه أشرافهم وفيهم خالد بن عبد الله القسري فقال لهم خالد : ايذنوا لي حتى اكون انا المتكلم ، فأذنوا له ، فلما أتوا دير سمعان استأذنوا عليه ، ثم قال له خالد : بلغنا يا أمير المؤمنين انك هممت بكذا وكذا ، قال : نعم ، فقال خالد : والله مالك ذلك ! فغضب عمر وعادت اليه حدته فقال له : لمن هو ؟ لأمك الكافرة ؟

وكان خالد القسري من أم ولد نصرانية ، ولم يكن من حق عمر ان يقول له ذلك الا انها الحدة ظلت معه تلازمه ، وتدنيه من الزلل . فقال له خالد : ان كانت كافرة فقد ولدت مؤمناً ! فاستحيا عمر وقال : صدقت ! فما قولك والله ما ذاك لي ؟ قال خالد : لأنا كنا معشر أهل الشام واخواننا من اهل مصر والعراق

(٣٣٨) حياة الحيوان ج ١ ص ٦٦

نغزو فيفرض على الرجل منا ان يحمل من ارض الروم قفيزاً بالصغير من فسيفساء وذراعاً في ذراع من رخام فيحمله اهل العراق وأهل حلب الى حلب ويُستأجر على ما حملوه الى دمشق . ويحمل اهل حمص الى حمص فيستأجر على ما حملوه الى دمشق . ويحمل اهل الشام ومن وراءهم حصتهم الى دمشق . فذاك قولي ماذاك لك ! فسكت عمر .

وفيما كان عمر لا يزال مصراً على ما نوادوقد اراد المضيّ ورأى ان يبدأ بتجريد قبلة المسجد من الذهب محتجاً بأنه يشغل عن الصلاة قالوا له : يا أمير المؤمنين ، انه أنفق عليه في سبيل المسلمين وأعطياتهم ، وليس يجتمع منه شيء ينتفع به ، فأراد أن يبيضه بالجص ، فقيل له : تذهب النفقات فيه ، فأراد أن يستره بالخزف فقيل له: ضاهيت الكعبة ، فبينما هو كذلك اذ جاءه بريد من والي مصر يخبره أن قارباً ورد عليه من رومية فيه عشرة من الروم يريدون الوصول الى امير المؤمنين فأذن لهم، وأمر أن يوجه معهم عشرة من المسلمين يحسنون الرومية ، لكل واحد واحد — ولا يعلمونهم أنهم يعرفون لغتهم ، حتى يحملوا إليّ كل كلامهم ، الا الرئيس ، فساروا حتى نزلوا دمشق خارج باب البريد . فسأل الروم رئيس العشرة من المسلمين أن يستأذن لهم في دخول المسجد فأذن لهم ، فمروا في الصحن حتى دخلوا من الباب الذي يواجه القبلة ، فكان اول ما استقبلوا المقام، ثم رفعوا رؤوسهم الى القبة، فقال رئيسهم : كم للاسلام ؟ قالوا : مائة سنة. فقال : كيف تصغّرون أمرهم ؟ ما بنى هذا البنيان الا مُلك عظيم ! ولم ينته من

قوله حتى خرّ مغشياً عليه ، فحمل الى منزله ، فأقام ما شاء الله ان يقيم ، ثم افاق ، فقال له أصحابه بالرومية : ما قصتك ؟ وما الذي عرض لك ؟ قال: كنا معشر أهل رومية نتحدث أن بقاء للعرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا علمتُ ان لهم مدة سيبلغونها ، فلذلك أصابني ما أصابني !

فلما قدموا على عمر اخبروه ، فقال : أما إذ غايَظَ العدو فإني أدعه . فترك ما كان همّ به من أمره [٣٣٩]

حسن البيان

كرِهَ عمر اللحن ومجاوزة الحق في القول وكره جفوة الكلام ومن اجل اللحن كره الوليد، ومن مجاوزة الحق كره الحجّاج ، ومن الجفوة اخذ يؤدب الجافين ولا يستكتب واحداً منهم . وقد دقّ ذوق الرجل للكلام لانه حسب له حسابه في امور السياسة وامور الاجتماع . وكان انكبابه على علوم الدين والحديث والقرآن ، منذ اول ، سبيلاً لارهاف حسه اللغوي بين قوم من خالصة العرب كلهم مرهفون .

ولقد ارتعد عمر حين قال رجل لرجل في حضرته : تحت ابطك ، فقال عمر : وما على احدكم ان يتكلم بأجمل ما يقدر عليه! قالوا : وما ذاك ؟ قال : لو قال تحت يدك كان أجمل !

وجيء بكاتب يخط بين يديه، وكان مسلما من أب لم يسلم، فقال عمر للذي جاء به : لو كنت جئت به من ابناء المهاجرين ! فقال الكاتب : ما ضرّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كفرُ أبيه! فقال

(٣٣٩) مسالك الأبصار ج ١ ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢

عمر : قد جعلته مثلاً ؟ لاتخطّ بين يدي بقلم أبداً [٣٤٠]

ولم يؤمن عمر بقول لا يحققه العمل. بل كان يرى القول والعمل شيئاً واحداً وانما أحدهما بعض الآخر ، ومن لم يجعل كلامه من عمله كان مذنبا كثير الذنوب [٣٤١] ، ولعله لم يفطن الى ذلك كل الفطنة الا بعد ان تلقى الناس على الحجاج بن يوسف فنون الأكاذيب وزور الحديث ، فنهض عمر من بعده يقعدهم عن الاقتداء به ويردّهم الى الحياة الحقة التي لا يختلف فيها طريق القول وطريق العمل اذ هما طريق واحد لمن أراد ان يكون على الهدى والسداد.

أما الكلام الحقّ فسماه عمر سحرا حلالا ، وأما هو فقد اصدر عن نية صارمة وقلب صادق حين تكلم ، ولذلك سمعت آذان الناس في مدته ومنه صوتاً صارخاً لم تسمعه من قبل الا في صوت رسول الله وبعض أصحابه ، وحتى العظة الخالصة وقراءة القرآن كانت منه تثير القلوب والأشجان . وقد خطب مرة بالقرآن فقرأ « اذا الشمس كورت » وكان يقرأها بصوت يبكي ودمع يثور ، فارتج المسجد كله بالبكاء حتى ظُنت حيطان المسجد كأنما تبكي معه ومع الناس .

حتى اذا رأى الناسَ قد أخذوا بقوله وافتتنوا ببلاغته قطع كلامه مخافة ان يطغى رنين الكلام على معناه ومخافة المباهاة ، ومع أنه كان شديد التحفظ في كلامه عظيم الحرص على الحق فيه حتى قيل : ما رؤي رجل أشد تحفظاً في منطقه من عمر بن عبدالعزيز-

---

(٣٤٠) ابن الجوزي ص ٢٤٠، ٢٤١، ٦٢

(٣٤١) الطبري ج ٥ ص ٣٢٤

مع ذلك كله كان يقطع كلامه اذا فتن به الناس . وقد خطب يوم عيد فأرقّ كلامه فأبكى الناس جميعاً يميناً وشمالاً ، ثم قطع كلامه والناس ينتظرون ان يكمل ، ونزل ، فدنا منه رجاء بن حيوة فقال له : يا أمير المؤمنين ، كلمتَ الناس بما ارقّ قلوبهم وأبكاهم ثم قطعته أحوج ما كانوا اليه ، فقال : يا رجاء ، اني اكره المباهاة [٣٤٢]

وكما كان عمر صادقاً في قوله كان حَسَن الاداء حتى انه ليفتن المسافر عن سفره فيقيم ليسمعه ، ومن أقام ليسمعه المرة تلو المرة ودّ ألا يرتحل . ولقد سمعه رجلٌ يقال له عديّ بن الفضيل ، وكان ممن يعجبه القول البليغ والاداء الحسن — سمعه في يوم جمعة وهو يخطب ، وكان عديّ مسافراً فأقام ، وما زال مقيماً شهراً ما به الا انتظار الجمعة او انتظار الفرصة لاستماع كلامه [٣٤٣]

وما من خطبة لعمر ولا كتاب ، ولا كلام ولا توقيع الا وهو يضرب في البلاغة بسهم . وقد اشتهرت له كلمات صار لهنّ مقام الحكمة وبليغ الأثر . وذلك مثل قوله : ما بسط أمل امن لا يدري ، لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا — ألا واني لست بمبتدع ولكني متبع — لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق — انما هي خطايا مطوقة في اعناق الرجال ، وان الهلاك كل الهلاك الاصرار عليها — انقوا الله واجملوا في الطلب — ما قرن شيء الى شيء أحسن من

(٣٤٢) ابن الجوزي ص ١٦٣، ١٦٥، ١٨٥ — العقد الفريد ج ٢ ص ٩٢
(٣٤٣) الكامل للمبرد ج ١ ص ٩١

علم الى علم ، ومن عفو الى مقدرة — لقاء الرجال تلقيح لألبابها — ان رجلا ليس بينه وبين آدم أب حيّ لمعرق في المـــوت — من جعل دينه غرضاً للخصومات أسرع التنقل [٣٤٥]

وله توقيعات على كتب العمال تدل على صدق فراسته وفهمه وبصره بالدليل ، وما سُمع انه هاب ان يوقع على كتاب للخليفة حتى وهو والٍ تحته ، فقد وقع على رقعة للوليد بن عبدالملك حين كان عاملاً له على المدينة يقول : الله اعلم أنك لست اول خليفة يموت . وقد وقّع في قصة متظلم : العدل أمامك . وفي رقعة رجل شكا زوجته : أنتما في الحق سيّان . وفي رقعة رجل يشكو ابنه : ان لم انصفك منه فأنا ظلمتك!

وكان عمر مع تحفظه في المنطق وحرصه على الحـــق سريعَ الخاطر في سبك الكلام ، فالعدّة لديه حاضرة والصدق يعينه ، فلم يكن ليحتال او يبطىء اذا أعوزه القول الحـــاضر والأمر الحازب ، وطالما كانت اجاباته المرتجلة على الوليد مقنعة له ولأولاده بخاطر عمر وشدة حذقه . وكانت اجاباته السريعة للناس اهون عليه من اجاباته للوليد ، وقد قال له رجل : نحن بخير ما ابقاك الله ! فقال له : انت بخير ما اتقيت الله تعالى ! [٣٤٦]

ولما آمن عمر أشد الايمان بفعل البلاغة في نفوس الناس ، لم

---

(٣٤٥) عيون الاخبار : كتاب العلم والبيان ص ١٢٦ — ابن الجوزي ص ٦٣ ، ٢١٧ — الموافقات ج ٤ ص ٣٢٠

(٣٤٦) انظر باب التوقيعات بالعقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٨ — الحكمة الخالدة ص ١١٧

تحمد همته فيها ، ورأى حسن البيان شرطا لازماً للحاكم عامة ، فاذا تولى الحاكم هداية الناس وكان زعيم ارشادهم كانت البلاغة له ألزم ، وقوة البيان أولى ، ولم يغب عن عمر — راشداً — أن لأجادة القول سيطرة على القلوب وهيمنة على النفوس ، وقد يقاد بها الناس كما تقاد الابل الآنفة لتحمل على الطريق .

obeikandl.com